مملكةٍ في الصخر

أو

بلاجيوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ ثلاثة أعوام ، في منتصف ابريل سنة ١٩٣١ ، انهار صرح الملوكية الأسبانية ، واختتم أقدم العروش الأوربية حياته الطويلة الحافلة ، وطويت من التاريخ صفحة يشغل تاريخ العرب والاسلام منها حيزاً كبيرا . ذلك أن الملوكية الأسبانية التي شهدنا سقوطها بالأمس ، هي نفس تلك الملوكية التي سحقها العرب يوم فتحوا الأندلس (٩٢ هـ — ٧١١ م) ، والتي استأنفت بعد ذلك حياتها ضئيلة متواضعة في قاصية أسبانيا الشمالية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب ؛ وبدأت بعدذلك معركة الحياة والموت مع تلك المملكة الأسلامية التي قامت في أسبانيا على أنقاض مملكة القوط النصرانية ، ولبثت مدى قرون طويلة تطاولها وتجاهدها ، حتى آذنت دولة الاسلام في الأندلس بالاضمحلال ؛ ومازالت المملكة النصرانية في نمو مستمر ، والمملكة الاسلامية في ضعف مستمر ، حتى غدا الاسلام محصوراً في مملكة غرناطة الصغيرة ، ثم حلت المعركة النهائية ؛ وظفرت الملوكية الأسبانية بتحقيق برنامجها القديم وغايتها الخالدة ؛ فانتزعت غرناطة معقل الاسلام الأخير ، وقضت على دولة الاسلام بالأندلس (٨٩٧ هـ — ١٤٩٢ م) .

وقد نشأت الملوكية الأسبانية الذاهبة في ظروف كالأساطير ، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب أسبانيا ، وسحقوا دولة القوط العديمة . ففي موقعة شريش التي مزق فيها جيش القوط ، وقتل آخر ملوكهم رودريك « لذريق » (٩٢ هـ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم الى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية التي وقف عندها تيار الفتح الاسلامي ، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق ، وفي هضاب استوريس في الغرب ؛ واجتمع قل النصارى في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق بتروس ، واجتمع في الهضاب الغربية ، في جليقية تحت لواء زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو . وكان بتروس ينتمي إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط ، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه رودريك . أما بلاجيوس أو بلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه اليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة أنه كان رفيع المنبت والنشأة ؛ وتقول بعض الروايات أنه ولد الزعيم فافيلا الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية ، وأنه كان لذلك من خاصة الملك رودريك وقادته[1] . وتعرف الرواية الاسلامية بلاجيوس وتحدثنا عنه وتسميه « بلاى » ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ، وتنعته غالباً بأنه « علج من علوج النصارى »[2] ، وتتبع أخباره مع المسلمين ولكنها لا تلقي ضياء كثيراً على أصله ، أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط الى ما وراء الهضاب الوعرة التي امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية التي غدت غير بعيد خطراً على دولة الاسلام في أسبانيا . ومن الغريب أن راوية نصرانيا كبيراً معاصراً هو «ايزيدور الباجي»[3] وهو حبر عاصر الفتح الاسلامي وكتب روايته في منتصف القرن السابع ووصل في كتابتها حتى سنة ٧٥٤ م ، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة في الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها بلاجيوس ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن ايزيدور يتتبع أخبار الغزوات الاسلامية كلها منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء في أسبانيا أو في مملكة الفرنج ، ويقدم الينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك الى أن ايزيدور ، وهو يقيم في الجنوب في مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الشمالية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الاسلامية في فرنسا ، وأخبار مملكة أكوتين ،

(١) يقول المؤرخ المستشرق كاردون ان بلاجيوس ينتمي الى أصل ملكي ، وانه الأمير الوحيد الذي نجا من فتك العرب (راجع Hist de l'Afrique et de l'Espagne : 1 - 105) بيد ان كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية

(٢) راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٢٨ — ونفح الطيب للمقري — ج ١ ص ١١٠

(٣) Isidori Pacensis Chronicon

يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ، وهي أقرب اليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع الى انتماء أميرها بلاجيوس الى حزب رودريك الذي كان يبغضه المؤرخ هي التي حملته على إغفال أخبارها[1] .

وعلى أي حال فان الرواية الاسلامية تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية الاسبانية في الهضاب الشمالية بعد أن سحقت في موقعة شريش ، فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح الى الجبال الشمالية ، وامتنعت في مغاوز جبال استوريس كما قدمنا ؛ وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتابريا وجليقية . وكانت امارة كانتابريا التي أسسها الدوق بترو ، لوقوعها في الطرف الغربي من جبال البرنيه (البرت) في سهول ناڤار وبسكونية عرضة لاقتحام الفاتحين حين سيرهم الى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن امارة جليقية كانت تقع في أعماق جبال استوريس الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم . ففي هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع بلاجيوس وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا الى مغار عظيم يقع في آكام كافادونيا ، وتحيط به وديان سحيقة خطرة ، ويعرف في الرواية الاسلامية باسم « الصخرة »[2] . ويقول لنا ابن خلدون في الفصل الذي يخصصه « لملوك الجلالقة » إن هذه الامارة الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية لا تمت بصلة الى القوط ، وان ملوك الجلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الاسلامي[3] ، بيد انه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأي على اطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التي لجأت الى الشمال كانت مزيجاً من القوط والاسبان المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى الينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية أن الزعماء ، ولا سيما بلاجيوس كانوا من القوط ، وان ملوك الجلالقة ينتمون الى القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون بادئ بدء بهذه الشراذم المزقة ، وكان اغفال أمرها من أعظم أخطاء الفاتحين ، بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى في الشمال ، وبالأخص في بسكونية ، (أو بلاد البشكنس) اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ؛ وسير الحر ابن عبد الرحمن الثقفي والي الأندلس سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ) جيشاً الى الشمال لاخضاع النصارى . فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب استوريس ، وأوفدوا حليفهم الاسقف اوبلس ، وهو أخو الملك وتيزا ، الى بلاجيوس ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة ، فأبى بلاجيوس ، ونفذ المسلمون الى أعماق الجبال ، وحاولوا عبثاً أن يستولوا على مراكز المدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ؛ وحصر بلاجيوس وأصحابه مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تباعاً من الجوع حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء[1] . وتزعم بعض الروايات النصرانية أن بلاجيوس كر على المسلمين ، وانهم هزموا هزيمة شنيعة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوبلس أسيراً في أيدي مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت[2] .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ارتدوا عن جليقية محتقرين شأن هذه الشرذمة المزقة الجائعة ؛ فقويت لذلك نفس بلاجيوس وأصحابه ، وانضم اليه كثير من النصارى في كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكا عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ؛ وألفى بلاجيوس الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وترويع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضي الاسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنتظم الى قوة يخشى بأسها ؛ ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) ، في عهد أمير الأندلس الهيثم ابن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه ، عثمان بن أبي نسعة الذي تعرفه الرواية النصرانية باسم منوزا أو موزا ، جيشاً الى جبال استوريس لغزو جليقية وسحق أميرها بلاجيوس ؛ ولكن بلاجيوس استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم هزيمة شنيعة . ولما رأى بلاجيوس منعة معقله وقوة عصبته ،

(١) راجع :
Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien I. s. 142

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧

(٣) ابن خلدون — ج ٤ ص ١٧٩

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨ —
Dozy : Musulmans de l'Espagne—V. II. 128

(٢) Cardonne; ilid; I - 109 — Aschbach; ilid; I - 145

اخترق بسكونية ، وهاجم قوات ابن أبي نسعة في الوقت الذي كان يتأهب فيه للسير اليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد الى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافق وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (١١٤هـ — ٧٣٢م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج عن الأراضي الاسلامية في سبتمانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضي الأسلامية في شمال نهر دورو (دويره) وفي منطقة استرقة ، وعاث المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى ؛ ولم تسعفهم حكومة قرطبة بالمدد والعون ، لاضطرام الأندلس بالفتن ونشوب الحرب الأهلية بين مختلف الزعماء والقبائل . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك بلاجيوس وعصاباته على الاغارة والعيث في أراضي المسلمين ؛ وكانت الامارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى الى لواء بلاجيوس من مختلف الأنحاء .

واستمر بلاجيوس في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاما ، وتوفي سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهري للأندلس (١٢٧ — ١٣٨ هـ) (٧٤٥ — ٧٥٥ م) ، وان الموقعة التي نشبت بين عثمان بن أبي نسعة وبلاجيوس كانت بين سنتي ٧٤٦ و ٧٥١[1] ، وهي رواية ظاهرة الضعف . لأن عثمان ابن أبي نسعة قتل سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، والرواية الاسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن . وخلف بلاجيوس ولده فافيلا ، ولكنه توفي بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣١ م) . وكان الدوق بتروس أمير كانتابريا قد توفي في ذلك الحين أيضا ، وخلفه ولده الفونسو دوق كانتابريا ، ونمت هذه الامارة النصرانية الصغيرة أيضا واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليقية بتزوج أميرها الفونسو من ابنة بلاجيوس واسمها اورموزنده أو هرمزنده ؛ فلما توفي فافيلا ولد بلاجيوس ، اختار الجلالقة الفونسو دوق كانتابريا ملكا عليهم ، واتحدت الأمارتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية في الرواية الاسلامية ، تمتد من بلاد البشكنس شرقاً الى شاطئ المحيط غربا ، ومن خليج بسكونية شمالا الى نهر دويرة جنوبا ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم .

ويعتبر الفونسو دوق كانتابريا ، أو الفونسو الأول «الكاثوليكي» مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، واصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة[1] الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم الى الجنوب في قلب المملكة الاسلامية ، ثم انتهوا بافتتاحها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) ؛ وحكم الفونسو في ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء . وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي الاسلامية ، فاجتاحها الفونسو بجموعه وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى الى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) ، واشتد عصف الولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بالفونسو ملكا عليهم[2] ! وانتهز الفونسو هذه الفرصة فغزا استرقة واستولى عليها من يد المسلمين واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالاساطير ، واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مدهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الاسلام في الأندلس وتغالبه ؛ ولم يأت عهد الناصر لدين الله حتى كان وجودها خطراً على الدولة الاسلامية ذاتها ؛ وحتى بدأت بين الاسلام والنصرانية في الأندلس معركة الحياة والموت . وسطع الاسلام

(١) Aschbach; ibid - I. 148 - 149

(٢) Dozy; ibid: II - 130; Aschbach; ibid I - 152

(١) ابن خلدون — ج ٤ ص ١٧٩

(٢) أخبار مجموعة — ص ٦١ و ٦٢ — Dozy; ibid, II - 130